

"ماهية الخطاب والنص وعلاقته بالثقافة رؤية التداولية"

الدكتور: شعيب زياد

المركز الجامعي بريكمة - باتنة/الجزائر

ملخص:

تعددت مفاهيم وتحديدات مصطلحي النص والخطاب، بتعدد الآراء والخلفيات المعرفية، حتى بات الإلمام بهما عرضا ومناقشة من الصعوبة بمكان، إلا أنّ ذلك لن يكون حائلا من أن نقف على أهم التحديدات المعجمية والاصطلاحية، الأجنبية منها والعربية لهذين المصطلحين، حيث تعد كلمة الثقافة من أكثر الكلمات تداولاً في الحياة اليومية لدى الفرد، إلا أنّ هذا لا يدل على بساطتها، بل العكس فهي كمصطلح "الثقافة" تتسم بالزبئية؛ فالباحث عند تتبّعه لهذا المفهوم يجد من التعاريف ما لا تحويه دفتي كتاب، مما يوجب علينا الدقة والاختصار، فالثقافة كمفهوم من وجهة نظر غير المتخصّصين تعني "الحداقة والفتنة وكثرة المعلومات والمعرفة، وهنا جاءت فكرة كتابة هذه الورقة والتي جاءت كنقطة تقاطع بين الخطاب المتداول في حياتنا اليومية مرتبطاً بالثقافة.

الكلمات المفتاحية:

النص - الثقافة - التداول - المعرفة ...

Abstract:

There are many concepts and definitions of the terms of the text and the discourse, the diversity of views and backgrounds knowledge, so that the knowledge of the presentation and discussion is difficult, but that will not be a barrier to stand on the most important definitions of lexicon and terminology, foreign and Arab of these terms, where the word culture of the most words But in contrast, it is the term "culture" characterized by mercury; the researcher when following this concept finds definitions do not contain the contents of the book, which requires us to accuracy and abbreviation, culture as a concept from a non-point of view Specialists

Means "tact and intelligence and the abundance of information and knowledge, and here came the idea of writing this paper, which came as a point of intersection between the discourse rolling in our daily lives linked to culture.

key words:

Text – Culture – Trading – Knowledge..

مقدمة:

يعتبر تاييلور الثقافة ذلك الل المركب الذي يشمل العادات والتقاليد ومجمل القيم التي تتحكم وتعبر عن مجتمع ما، ومجتمعنا الجزائري من ابرز المجتمعات التي يتجلى فيها التنوع الثقافي في الشرق الثقافي من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب على مر العصور، فأتيح لنا فسيفساء ثقافية، قد تعجز الكتب عن احتوائها والألسن عن سردها والعقل عن تتبع تفاصيلها، ولعل الأقرب إلى حل هذه الشفرة هو الباحث.

والباحث في هذال المجال لا يجد من استقصاء مرآة عاكسة لمظاهر الثقافة حتى يكشف مكوناتها ويسبر أغوارها، وهي الخطاب هذا الأخير الذي اتخذه علماء اللسانيات موطن أعمالهم ومنبع نظرياتهم وحقل تجاربهم، وعلى هذا الأساس وجب علينا اتخاذ الخطاب أداة ووسيلة لكشف ضبايية هذا المكون من مكونات المجتمع الجزائري.

1- النّص:

-لغة: عند العرب: أورد الفيروز آبادي في القاموس المحيط في مادة "نصص" معنى النّص في قوله: نصّ الحديث رفعه ... والشّيء أظهره¹، وجاء في معجم التّهذيب للأزهري (282هـ - 370هـ): "النّص أصله منتهى الأشياء ومبلغ أقصاها، ومنه نصّت الرّجل إذا استقصيت مسألته عن الشّيء، حيث تستخرج كلّ ما عنده وكذلك النّص في السّير إنّما هو أقصى ما تقدر عليه الدّابة ... ونصّ الشّيء وانتصب إذا استوى واستقام"²، والملاحظ أنّ معنى النّص في المعاجم العربيّة يتمحور حول معاني الرّفعة والظهور والبروز والاكتمال، أما عند الغرب: فقد وردت بمعنى النّسج « Tissue » المشتقة بدورها من « Texere » في المعجم الأجنبي، " نسيج: أي قماش منسوج بدقة ... (النسيج)³. ذلك أنّ النص في انتظام كلماته بعضا إلى بعض كيانا مستقلا، يشبه النسيج خيوطه متشابكة بعضها ببعض ليكون قطعة منفصلة، و«إذا كان النسيج المادي يتكوّن من اللّحمة والمنوال ... فإنّ النّص يتكوّن من الحروف والكلمات المجموعة في الكتابة»⁴.

¹- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، 1997، ج 01، مادة نص، ص 858.

²- الأزهري، معجم التّهذيب، الدّار المصريّة للتأليف والترجمة، ط1، 1964، ج 15، ص 362

³- Oxford Dictionary of Current English: H. W Fowler and F. G. Fowler, Imp: 07, GlarendonPress, Oxford UniversityPress, p 928.

⁴- محمّد مفتاح، المفاهيم معالم، نحو تأويل واقعي، المركز الثقافي العربي، دط، 1999، ص 16.

- اصطلاحاً: عند الغرب: تحدّد مفهوم النصّ بشكل جليّ وواضح، من خلال أعمال اللسانيين الغربيين لعلّ أبرزهم وأكثرهم تداولاً تعريف جولياكريستيفا Julia Kristeva* والتي حدّدت مفهوم النصّ بأنه جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام تواصلية يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة. وهو عند العرب، كما يقول محمد مفتاح: «النص مدوّنة حدث كلامي ذي وظائف متعددة.

- مدوّنة كلامية : يعني أنّه مؤلف من الكلام وليس صورة فوتوغرافية أو رسماً أو عمارة أو زياً وإن كان الدّارس يستعين برسم الكتابة وفضائها وهندستها في التّحليل .
- حدث : إن كان النصّ هو حدث يقع في زمان ومكان معيّنين لا يعيد نفسه إعادة مطلقة مثله في ذلك مثل الحدث التّاريخي .

تواصلية : يهدف إلى توصيل معلومات ومعارف ونقل تجارب ... إلى المتلقي .

تفاعلي : على أن الوظيفة التّواصلية في اللّغة ليست هي كلّ شيء، فهناك وظائف أخرى للنصّ اللّغوي أهمها الوظيفة التّفاعلية التي تقيم علاقات اجتماعية بين أفراد المجتمع وتحافظ عليها .

مغلق : ونقصد انغلاق سمته الكتابية الأيقونية التي لها بداية ونهاية، ولكنّه من النّاحية المعنوية هو: توالدي : إنّ الحدث اللّغوي ليس منبثقاً من عدم، وإنّما هو متولّد من أحداث تاريخية وفسانيّة ولغوية ... وتتناسل منه أحداث لغوية أخرى لاحقة له⁵.

2- الخطاب

- لغة: عند العرب جاء في المعجم الوسيط: (خَاطَبَهُ) مخاطبةً، وخطاباً: كالمه وحادثه وخاطبه: وجّه إليه كلاماً⁶، والخطاب الكلام، وفي القرآن الكريم: "إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَلِي نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ"⁷، كما ورد في الكافي لمحمّد الباשא، أنّه من المصدر خاطب: المواجهة بالكلام، ويقابلها الجواب: الرّسالة والخطاب مصدر خطب: عمل الخطيب وحرفته. والخطب مصدر خطب: الحال والشّأن «فَالْفَمَاخَطْبُ كَمَا يُهَيِّئُهَا الْمُرْسَلُونَ»⁸ الأمر الشّديد يكثر في التّخاطب، وغلب استعماله للأمر العظيم ، (ج)

5- محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1992، ص 120.

6) إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق التّولّية، مصر، ط 04، 2004، ص 243.

7- سورة ص، الآية 23.

8- سورة الدّاريات، الآية 31، الحجر، الآية 57.

خطوب، الخطبة مصدر خطب ما يخطب به الكلام⁹. ليكون الخطاب لغة حاملا لدلالة التأثير، أما في المعاجم الأجنبية، ومن بينها أوكسفورد للغة الإنجليزية، فعرف الخطاب بأنه: «سلسلة من الأقوال، نص أو محادثة»¹⁰.

أما اصطلاحا: فقد أورد سعيد يقطين في كتابه تحليل الخطاب الروائي تعريفا للخطاب حيث قال بأنه: «عبارة عن ملفوظ طويل، أو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية وبشكل يجعلنا في مجال لساني محض»¹¹، أمّا محمّد خلاف فيرى بأنّ الخطاب هو المجال الذي تكسب فيه الوحدات اللغوية قيمتها الدلالية الملموسة¹².

وكلا التعريفين كما هو واضح يركّز على إكساب اللفظ للمعنى المقصود، من خلال بقية الألفاظ المترابطة معه، وفق نظام سليم، و متأثر بالتّحديدات الأجنبية لمصطلح Discours خاصة عند بينفينيست *Emile Benveniste الذي يعرف الخطاب على أنّه «في أوسع امتداده هو كلّ لفظ يفترض متحدثا ومستمعا للأول نية التأثير في الآخر بأيّ طريقة بداية من التعبيرات الشفوية بجميع أنواعها وعلى جميع المستويات من محادثة بسيطة إلى الخطاب الفني».

وهو في هذا كلاً رسالة من الباث إلى المتلقّي الغاية منها تحقيق التأثير والتّواصل، والغاية من التّواصل والتأثير في المتلقّي هو بلوغ درجة الإقناع، ولهذا فالخطاب لا يتوقّف عند الحدود اللسانية للجمل أو الفقرة أو النص، بل يجاوزه إلى مستوى المضمون والمحتوى¹³، لذلك فهو المادة الأساسية للتحليل و الدراسة، و هو أكثر الموضوعات تناولا في الدراسات اللغوية واللسانية الحديثة؛ فهو العاكس للثقافات، لاستعماله اللغة في سياق تداولي محاط بظروف محددة، مفتوح على قراءات متعددة، و دلالات مختلفة يصنعها القارئ بالتحليل و التفسير.

-تعريف الثقافة:

⁹- محمّد الباشا، الكافي، في المعجم العربي الحديث، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، دط، 1992، ص 414.
¹⁰- النص الأصلي:

«connected series of utterances; a text or conversation».

- Oxford Dictionary of Current English , p 234.

¹¹- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط3، 1997 ص 17.

¹²- محمّد خلاف، الخطاب الإقناعي، الإشهار نموذجاً، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، العدد التاسع، 1987، ص 31

* إميل بنفينيست (1902-1976) لساني فرنسي.

¹³- فتيحة لعلاوي، الحجاج في أدب الجاحظ "كتاب البلاء أنموذجاً"، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، 2011-2012، ص 43.

تعد كلمة الثقافة من أكثر الكلمات تداولاً في الحياة اليومية لدى الفرد، إلا أنّ هذا لا يدل على بساطتها، بل العكس فهي كمصطلح "الثقافة" تتسم بالزبنيّة؛ فالباحث عند تتبّعه لهذا المفهوم يجد من التعاريف ما لا تحويه دفتي كتاب، مما يوجب علينا الدقّة والاختصار.

لغة: جاء في لسان العرب ثقافةً من ثقّف أي حدّق وفهم وضبط ما يحويه وقام به أو ظفر به وكذلك تعني فطن ذكي ثابت المعرفة بما يحتاج إليه، وتعني تقويم وتسوية الشيء من بعد اعوجاج¹⁴.
أما القاموس المحيط، فقد أتى الفيروز أبادي بالمعنى نفسه تقريباً، "ثقّف، ككّرّم وفرح، ثقّفًا وثقافة: صار حاذقاً خفيفاً فطناً، فهو ثقّف"¹⁵.

أما في اللغات الأجنبية فقد وردت لفظة Cultture المشتقة من الفعل الفرنسي cultivier في القاموس Le petit Larousse بالشكل التالي:

أي فعل الزّراعة... غرس الأزهار... مجموعة المعارف المكتسبة... التّعليم والمعرفة
ثم جاءت في اللغة الإنجليزية في قاموس أكسفورد (OXFORD) بمعنى فنون وعادات ومؤسسات
أمة أو أناس أو مجموعة ما.

فالثقافة كمفهوم من وجهة نظر غير المتخصّصين تعني "الحداقة والفطنة والفهلوة وكثرة المعلومات والمعرفة"¹⁶.

اصطلاحاً: الثقافة كمصطلح يتّسع مفهومها باتساع العلوم وكثرة التخصصات، وعليه سنعرض بعض المفاهيم التي مثّلت انتقالاً نوعية لهذا المصطلح فالليونان لم يعرفوا مفردة (Culture)، أما الرومان فتعني عندهم الرّجل المثقّف، وهو الشّخص المتفنّن في سلوكه وأفعاله، أمّا في العصور الوسطى أصبحت الثقافة شديدة الاتّصال بالدين والتّعبّد¹⁷.

أمّا في عصر النهضة فقد عرف القرن الثامن عشر رواج البحوث التاريخية لدى الألمان لغرض معرفة تطوّر البشريّة من مهدها الأوّل إلى وقتها الحاضر آنذاك، وأشهر مؤلّف كُتب في هذا المجال نُشر

¹⁴ ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسبا لله وهاشم محمد الشاذلي، دارالمعارف، القاهرة، ج2، دبت مج10، ص19-20.

¹⁵ الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، 2005، ص795

¹⁶ مجموعة من الباحثين، الثقافة بين الوحدة والتعدد، دار العلوم، ط1، 2007، ص32.

¹⁷ عارف محمد نصر، الحضارة-الثقافة-المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، ط2، 1994 فرجينيا، وم أ، ص19.

سنة 1782 لصاحبه جون كريستوف أديلونفل* Johann Christoph Adelung عنوانه: "محاولة حول

تاريخ ثقافة الجنس البشري" "Un essai sur la culture de l'esprit humain"¹⁸

فالملاحظ أنّ مفهوم الثقافة نشأ من التاريخ وليس من الفلسفة كما هو شأن معظم مفاهيم العلوم فالمؤرخون الألمان لم يكتفوا بالنظر والتفكير في الثقافة وإنما بحثوا عنها في واقع الحياة اليومية للتجمعات الانسانية.

التعريف الإجرائي:

تعذر الإمام بمفهوم الثقافة، جعل منها صعبة المنال على الدرس والتقصي، مما يبعث بالدارس على التريث في كلّ خطوة من خطوات الدراسة، خاصة وأنّ الضبابية سترافق البحث من أوله في تحديد مفهوم . دقيق وشامل . يفي بالغرض ويسير وفق لأهداف البحث.

فارتباط الثقافة بالعديد من الحقول المعرفية كعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا، مكن الداء والدواء معا، فالثقافة تنشط بين كلّ العلوم، وفي هذا التشظي، تكون علاقة فيسفايية تستمد منها ديناميتها واستمراريتها. ولئن كان تايلور في كتابه الثقافة البدائية أول من أحدث انعطافا مهما في مفهوم الثقافة (1871)،

فإنّ الدراسات الثقافية عرفت النضج في أشهر كتب ريموند وليامز **Raymond Henry Williams** *

الثقافة والمجتمع "Culture & Society" الذي صدر 1958 وهي الحقبة التي شهدت نضج الكثير من العلوم¹⁹، كالبنوية، والأنثروبولوجيا ونقد النماذج العليا ن كأعمال بارث، جان لاكان، رومان ياكسون... ولما كانت دراستنا هذه خاصة بالثقافة الجزائرية، فإنّ التعامل مع الثقافة سيكون محليا أي ضمن المؤسسة الثقافية الخاصة، مقصورا على خصوصية المجتمع الجزائري.

والثقافة في محلّيتها والمقصورة على سياقها الذاتي في زمنها التاريخي، كما حددها وليامز سواء في كتابه: المفردات المفاتيح، أو في كتابه الأخير: الثقافة، هي اسم يحدد صيرورة ذاتية داخلية تخص الحياة النخبوية والفنون، وهي اسم أيضا لصيرورة عامة تخص تشكّلات سبل الحياة ووسائطها وقياسها على أي من الصيرورتين تملي منظورها على الثقافة، تتغير دلالة الثقافة وتوجهها²⁰. و بناء على ذلك فإنّ الثقافة التي

* جون كريستوف أديلونفل (1732 - 1806) لغوي ألماني، مؤلف أول قاموس شامل للألمانية.

18) Rocher Guy Introduction à la sociologie général T1 l'actionsociale, points ; ed ; Hmh paris 1984 ; P102.

* ريموند وليامز (1921 - 1988) أكاديمي وروائي وناقد بريطاني.

¹⁹ - آثرأيزابجر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، ترجمة: وفاء ابراهيم و رمضان نيسطاويس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، دط، 2003، ص 30 - 31.

²⁰ - ميجان الرويلي و سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط3، 2002، ص142.

نعنى بدراستها وفقا للصيرورة الأولى، أي ثقافة محلية جزائرية تخص أهم انتاجات النخبة (العلوم الشرعية، الأدب، المنطق، التاريخ، العلوم و الفنون) خلال العهد العثماني. وفي محاولة لاستكناه خصوصية الثقافة الجزائرية وأهم مميزات الخطاب حول هذه الثقافة الجزائرية التي لطالما اتّسمت بالتنوع والغنى.

-اللغة والثقافة:

إنّ هذا الكل أي الثقافة سواء كان معتقدات، معرفة، فنّ، قانون، قدرات، أو مكتسبات لا يمكن أن يستغني فيها الانسان عن رموزه، فالرمز لا ينفك عن هويتنا أو فئة دمننا أو أرقام حساباتنا، وعناويننا... الخ، هذا الرمز الحامل لمختلف أشكال وعناصر الثقافة هو اللغة حيث: «أصبحت اللغة رابطة العقد للخريطة المعرفية، أو الركيزة الأساسية لفلسفة العلم، وما من مذهب فلسفي إلا وله نسقه اللغوي، وما من فرع من فروع الفنّ والعلم إلا ويشارك اللغة كثيرا من سماتها»²¹.

فقد اجتهد سابير وورف **Benjamin Lee Whorf et Edward Sapir*** فيبلورة نظرية حول

العلاقات بين الثقافة واللغة فهما يعتبران اللسان ظاهرة ثقافية في تمامها.

كما أكد كلود ليفي شتراوس "**Claude Lévi-Strauss**"* الأنثروبولوجي البنوي الذي يدين له

التحليل البنوي في الألسنية بالكثير لتعقد العلاقة بين اللغة والثقافة إذ أن:

- اللغة نتاج للثقافة، فاللسان المستخدم يعكس الثقافة العامة للسكان.

- اللغة جزء من الثقافة وعنصر من عناصرها.

- اللغة شرط الثقافة فالفرد يكتسب ثقافة مجموعته بواسطة اللغة.

- الثقافة لها هندسة مماثلة لهندسة اللغة²² إذ كلّ منهما يبنني بواسطة علاقات منطقية بين

الرموز **symbole**، هذا الأخير الذي يعرفه إرنستكاسيرر* **Ernst Cassirer**"الطاقة الفكرية

التي بواسطتها يصبح مضمون معين من الدلالات الفكرية مرتبطا بعلامات حسية وواقعية

²¹ - تركي أحمد، الثقافة العربية وعصر المعلومات، دار السقاقي، ط1، 1999، ص232.

* بنيامين لي وورف (1897-1941) عالم لسانيات أمريكي و مهندس مكافحة الحرائق، عرف بنظريته مع سابير.

إدوارد سابير (1884-1939) أنثروبولوجي ولساني أمريكي، من أبرز المساهمين في تطوّر علم اللسانيات في بداياته

²² - كلود ليفي شتراوس، الأنثروبولوجيا البنوية، ترجمة: مصطفى صالح، دار الحوار، د ط، 1973، دمشق، ص78-79.

متطابقة²³، هذا التعريف يحتل مكانة أساسية في تحليل الثقافة لأنه يبين أنّ "الشكل الرمزي هو الذي ينتج الواقع وليس انعكاسا له"²⁴.

وهو ما يتعارض ورأي كلود ليفي شتراوس الذي يبين أنّ اللغة نتاج للثقافة "فلا نستطيع فهم ممارسات الانسان في أيّ ثقافة من دون الأشكال الرمزية"²⁵، مؤكداً من خلال هذه النقطة أن اللغة شرط للثقافة "تكوّن الأشكال الرمزية مجموع الثقافة"²⁶ ومن بين هذه الأشكال . اللغة . وهي بذلك وفق ليفي شتراوس جزء من الثقافة.

عمل إرنست كاسيرر Ernst Cassirer على تأسيس نحو لغوي للثقافة في كتابه في فلسفة الأشكال الرمزية (1929) *Philosophy of symbolic forms* سابقا بذلك أعلام البنيوية في ضرورة الانطلاق من اللغة في دراسة الثقافة وذلك وفق النموذج اللساني.

تعتبر اللغة إذا المعدن الناقل للثقافة، إلا أنّها تتفاعل معها وتتوثر فيها باعتبارها جزء منها أو كما قال ميشال فوكو Paul-Michel Foucault*: "وفي الخلاصة تستطيع القول أن الألسنية تتمفصل مع العلوم الانسانية والاجتماعية في بنية ابستمولوجية خاصة تسمح بإظهار العلاقات المنطقية النابعة من الواقع، كما تسمح أيضا بإظهار الطابع الكلي لظواهر الاتصال وتناقش ما يمكن أن نسميه بالإنتاجات الخطابية".

1- تعريف التداولية (Pragmatics):

- لغة :

الجزر اللغوي لهذه الكلمة في أغلب المعاجم العربية هو الفعل دَوَلَ، فقد ورد في لسان العرب: "دالت الأيام أي دارت"²⁷.

²³ - الزاوي بغورة، الفلسفة واللغة، دارالطليعة، بيروت، ط1، 2005، ص79-80.

²⁴ - المرجع السابق، ص79.

²⁵ - المرجع نفسه، ص79.

* كلود ليفي شتراوس (1908-2009)، عالم أنثروبولوجي فرنسي.

** إرنست كاسيرر (1874-1945)، فيلسوف ألماني، من أشهر أعماله: "الجوهر والوظيفة" (1910)، "الحرية والشكل" (1916)، "فلسفة الأشكال الرمزية" (1929 - 1923)، "الأسطورة والدولة" (1942)، "الرمز والأسطورة والثقافة" (1979)، "اللغة والأسطورة" (1925) " ²⁶ - المرجع نفسه، ص79.

²⁷ - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير ومحمد أحمد حسبا لله وهاشم محمد الشاذلي، دارالمعارف، القاهرة، ج2، دبت، مادة (دَوَلَ)

أما في مقاييس اللغة فجاء: "تداول القوم الشيء بينهم إذا صار بعضهم إلى بعض، والدولة والدولة لغتان، يقال، بل الدولة في المال، والدولة في الحرب، وإنما سميا بذلك من قياس الباب لأنه أمر يتداولونه، فيحول من هذا على ذلك وعن ذلك"28.

أما في أساس البلاغة فذكر الزمخشري: "تداولوا الشيء بينهم أي مرة لهذا ومرة لذلك، والماشي يداول بين قدميه أي يراوح بينهما"29 وفي تفسيره للآية الكريمة: "تلك الأيام نداولها بين الناس"30 قال في الكشف: "تداولها: نصرّفها بين الناس نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء"31.

كما توحى الصيغة الصرفية للفعل تداول- بالتحوّل والتناقل، وهو ما يؤكده ابن عاشور في معرض تفسيره للآية السابقة إذ قال: فالتداول في الأصل تفاعل من دال32.

أما في المعاجم الأجنبية فالتداولية في المعجم الفرنسي Larousse "التداولية هي مجال استخدام اللغة من قبل المتكلمين في مواقف تواصلية"33.

أما في المعجم الإنجليزي فقد ورد في موسوعة كامبردج Cambridge فالتداولية هي دراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة، ثم ينتقل تأثير هذا الاختيار في الآخرين عن طريق التواصل والتفاعل حسب المرسل، وحسب رغبة المتلقي".

- اصطلاحاً:

ظهرت التداولية إثر إسهامات العالم الأمريكي شارلز بيرس (Charles. S. Peirce) (1839-1914) في علم السيمياء من خلال مقالتيه (إثبات الاعتقاد) The fixation of Belief و (كيف نجعل أفكارنا واضحة؟) How to make our ideas clear، حيث وضّح أنّ الفعل عن طريق الإدراك يؤدي إلى نتيجة ملموسة.

كما يرجع أول استعمال لمصطلح التداولية لتشارلز موريس (William Mouris Charls) سنة 1938 "التداولية تهتمّ بالعلاقة بين العلامات ومستعملها".

28- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل، بيروت، 1999، د ط، مج 01، ص 197.

29- الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 01، 1998، ج 01، ص

303.

30- سورة آل عمران، الآية 140.

31- الزمخشري، الكشف، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 03، 1986، ج 01، ص 418، 419.

32- ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، تونس، د ط، 1984، ج 04، ص 100.

- Petit Larousse, Librairie Larousse, Paris, Edition 1980, p 734.

أما ستالنكر 1970Stalnaker فيرى أنّ "التداولية تدرس أفعال الكلام والسياقات التي تتمّ فيها"، مركزًا على أفعال الكلام والسياق.

أما فرونسواز أرامينكو FrancoiseArmingaud فتهتمّ بالشروط القبليّة للعملية التّواصلية، وهو ما يتمحور حوله تعريفها للتّداولية، إذ تقول: "هي دراسة الشروط القبليّة التّواصلية كما هي، فلا يوجد لها طابع يرتبط بالظروف التجريبية، بل بشروط تواصلية عامّة"³⁴.

كما ورد في الكتاب نفسه تعريفًا للتّداولية للفرنسي فرانسيس جاك 1934Francis Jacques يركّز فيه على موضوع التّداولية فيقول: "تتطرقّ التّداولية إلى اللّغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية"³⁵. وفي السياق ذاته يدرج فان دايك Van Dijk تعريفًا للخطاب التّداولي قائلاً "الخطاب الذي يهتمّ بالعلاقات المطّردة الموجودة بين بنيات النصّ والخطاب"³⁶.

وبصفة عامّة يبيّن صلاح فضل أنّها "أحدث فروع العلوم اللّغوية، وتعنى بتحليل عملية الكلام والكتابة ووصف وظائف الأحوال اللّغوية وخصائصها خلال التّواصل"³⁷.

من خلال التعريفات السابقة، نلاحظ أنّ التّداولية أكثر استيعابًا للظاهرة اللّغوية بكلّ عناصرها، الملقى، المتلقى، السياق، ذلك لأنّها تدرس اللّغة في علاقتها بمستعملها.

وفي هذا السياق يقول مسعود صحراوي: "هي إيجاد القوانين الكليّة للاستعمال اللّغوي والتعرّف على القدرات الإنسانيّة للتّواصل اللّغوي، وتعتبر (التّداولية) من ثمّ جديرة بأن تسمّى علم (الاستعمال اللّغوي)"³⁸.

أما التّداولية كمصطلح فقد أوردها طه عبد الرّحمان ترجمة للمصطلح الغربي **Pragmatics** 1970، فهو يدلّ على معنى "الاستعمال" و "التّفاعل" معاً³⁹.

2- التّداولية : النشأة والتطور

عرفت السّنوات الأخيرة انتشار الدّراسات التّداولية سواء من النّاحية النّظريّة من خلال البحث في جذورها وامتداداتها المعرفيّة أو من ناحية النّطبيق، وذلك محاولة لاستنطاق مختلف الخطابات في جميع الميادين، ممّا يستدعي الدّقة والإيجاز في العروض النّظريّة خاصّة.

³⁴ - فرونسواز أرامينكو، المقاربة التّداولية، ترجمة: سعيد علّوش، مركز الإنماء القومي، المغرب، 1986، ص 12.

³⁵ - المرجع السابق، ص 74.

³⁶ - فان دايك، النصّ والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي والتّداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، ط 01، 2000، ص 275.

³⁷ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، عالم المعرفة، الكويت، ط 01، 1993، ص 26.

³⁸ - مسعود صحراوي، التّداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللّساني العربي، دار الطّليعة، بيروت، ط 01، 2005، ص 16، 17.

³⁹ - طه عبدالرحمان، فقه الفلسفة 2- القول الفلسفي: كتاب المفهوم و التّأثيل، المركز الثقافي المغربي، ط1، 1999،

وعُرِّفت التداولية بأنها علم أو مبحث لساني جديد، إلا أن البحث عن جذورها يؤرخ لها مع التيار الغالب في الفلسفة المعاصرة التي تركز على موضوع اللغة وهو الاتجاه التحليلي (الفلسفة التحليلية)*، ذلك أن انتقال فنجشتاين** *Witgenstein (1951 - 1989) من اللغة الاصطناعية إلى اللغة العادية، وتقويضه أسس النموذج اللغوي القائم على معيار التحقق ليحل محله نموذج جديد يعتمد على التواصل والاستعمال".

ويمكن إجمال سمات الاتجاه التحليلي فيما يلي:

- ضرورة التخلي عن أسلوب البحث الفلسفي القديم ولإسيما جانبه الميتافيزيقي.
 - تغيير بؤرة الاهتمام الفلسفي من موضوع نظرية المعرفة إلى التحليل اللغوي.
 - تجديد بعض المباحث اللغوية وتعميقها، لإسيما مبحث الدلالة والظواهر اللغوية المنفردة عنه.
- ويمكن القول أن البداية الفعلية للتداولية كانت من خلال أعمال فلاسفة اللغة، لإسيما مناقشات (جون أوستن J. Austin 1950) في جامعة هارفارد إذ أنه لم يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات، وإنما توخى تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة. ومنه وضع أوستن وتلميذه (سيرل) J. Searle (1932) نواة التداولية، وطورامن وجهة نظر تحليلية مفهوم الفعل اللغوي⁴⁰.
- وفي العام 1957 نشر الفيلسوف البريطاني بول غرايس* Paul Grice (1913 - 1988)، مقالات في الدلالة، وبعد مرور عشر سنوات ألقى-غرايس- محاضرات وليام جيمس ففتح الأفق واسعا أمام الأسئلة ليجعل التداولية أحدث فرع لساني بإمكانه احتواء كل عناصر الفعل اللساني من مقام، ومنتكلمين، وغايات، وحيثيات الاستعمال، كل ذلك يدور حول محور - الإنجاز- وفي الستينات أدخل كارناب Karnab مفهوم السياق المتضمن هويات المشاركين في الحدث الكلامي والمحددات الزمانية والمكانية والمعتقدات ومقاصد المشاركين⁴¹.

المفاهيم الإجرائية للتداولية :

سبق وأن تعرّضنا لبعض المفاهيم في سياق التداولية، ولأن هذه الأخيرة علم متشعب الأصول، كثير الفروع وعليه سنتناول المفاهيم الإجرائية للتداولية بشيء من الإيجاز والاختصار.

- الأفعال الكلامية Languages Acts:

⁴⁰- الزاوي بخورة، نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، ص 104.
⁴¹- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ط 01، 1993، ص 106.

لا تذكر التداولية إلا وذكرت معها نظرية أفعال الكلام لأنّ هذا المفهوم بمثابة الحجر الأساس في بناء علم التداولية، هذا الأخير عندما نقول فيه فإننا نعمل، فالفعل اللغوي هو "كلّ ملفوظ ينهض على نظام شكليّ دلاليّ، إنجازي، تأثيري، وفضلا عن ذلك يعدّ نشاطا ماديا نحويا يتوسّل أفعالا قولية Actes locutoires لتحقيق أغراض إنجازية كالتّطلب والأمر والوعد ... وغايات تأثيرية تخصّ ردود فعل المتلقّي كالرفض والقبول، ومن ثمّ فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا في المخاطب اجتماعيا، أو مؤسّساتيا، ومن ثمّ إنجاز شيء ما"⁴². وعليه فقد أجمل المسعود صحراوي في تعريفه للفعل اللغوي أقسام الفعل الكلامي:

أ- **فعل القول أو فعل التّلفّظ act locutionary**: ويراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة.

ب- **الفعل المتضمّن في القول (الفعل الإنجازي) illocutionary act**: ويقصد به الأفعال المنجزة حقيقة بحيث يلزم نفسه أو غيره بعمل شيء كالوعد والتّحذير ...

ج- **الفعل النّاتج عن القول (الفعل التّأثيري) perlocutionary act**: وهو المتسبّب في نشوء آثار في المشاعر والفكر مثل: الإقناع والإرشاد ...⁴³

- السّياق Context:

أي السّياق الذي يجري فيه القول بكلّ معطياته التّقافيّة والاجتماعيّة والنّفسية⁴⁴، وقد قرّر أوستين أنّ الأقوال تنتج ضمن سياقات محدّدة فتصبح دلالتها جزءاً لا يتجزّأ من هذه السّياقات "وقد اشترط لتحقيق المعنى الإنجازي توقّف السّياق العرفي المؤسّساتي لغة ومحيطا وأشخاصا"⁴⁵. وللّسياق دور مهمّ في تحديد وجهة الخطاب ومعاني النّصوص، وهو من العناصر الأساسيّة المساهمة في تكوينه، وهو بالمفهوم العام ما يسبق أو يلحق لفظا، أو وحدة لإبراز معناها، وتطوّر مفهومه واتّسع ليصبح مصطلحا شائعا في الدّرس اللغوي الحديث، وخاصّة في الدّراسات التداولية، فهو "مجموعة الظروف الاجتماعيّة التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار دراسة العلاقات بين الموقف الاجتماعي والموقف اللّساني ... ونقول أيضا أنّ السّياق الموقفي أو

⁴² - المسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، ط 01، 2005، ص 40.

⁴³ - المسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 42.

⁴⁴ - رنسيسلاف وأورزنيك، مدخل إلى علم النّص، ترجمة: سعيد حسن بحيري، مؤسّسة المختار، القاهرة، ط 01، 2003، ص.

⁴⁵ - جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامّة (كيف تتجرّأ الأشياء بالكلام)، ترجمة: عبد القادر قنيني، ط 02، دار إفريقيا الشرق، الدّار البيضاء، المغرب، 2000، ص 20.

سياق المقام وهما المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي حول السياق الثقافي والنفسي وخبرات ومعارف كل واحد منها⁴⁶.

وقد حدّد فان دايك السياق كمصطلح تقني يقوم بوصف مجرد لموقف فعل كلامي، فهو الوسيلة المثلى لتحديد مواقف الأفعال الكلامية، ووصفها وصفا دقيقا، لذا فالصفة التي تميّزه هي: الديناميكية؛ لأنه ليس مجرد حالة لفظية، وإنما هو على الأقل متواليّة من أحوال اللفظ، وبما أنه يتغيّر ولا يبقى ثابتا، فإن كلّ سياق عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث⁴⁷.

و تميز التداولية بين أنماط مختلفة للسياق وهي:

- **السياق الوضعي:** يتوافق مع المحيط الثقافي للخطاب وبصفته هذه، فهو يحدّد معايير للصحة (هناك تعابير تعدّ عادية في ثقافة معينة وينبئ أنها غير لائقة في ثقافة أخرى).
 - **السياق الظرفي:** وهو يوافق المحيط المادي المباشر للفاعلين (الفضاء، الزمان، طبيعة التواصل وبنيته...).
 - **السياق التفاعلي:** يحدّد صورة الخطاب ونسق العلامات المصاحبة له (دورية الكلام، حركات...).
 - **السياق العرفي:** يشمل مجموع المعتقدات والقيم المشتركة بين المتكلمين أمّا قبليا أو بعديا⁴⁸.
- فالتداولية علم لغوي يهتم بدراسة الملفوظ داخل السياق لا خارجه، تقوم على تحديد وضعية أفعال اللغة في العملية التواصلية باعتبارها أفعالا لغوية حاجية ذات بعد لساني تداولي، مما أكسب الحاجاج مكانة علمية و معرفية ذات أولوية في علوم اللغة الحديثة و خاصة التداولية من خلال موضعه داخل الخطاب و اعتماده آلياته كوسائل لفك شفرات الخطاب و كشف المسكوت عنه فيه، و هو ما أوجب تناول الحاجاج في الفصل الموالي.

⁴⁶ - علي آيت أوشان، السياق والنص الشعري، ص 30-34.

⁴⁷ - فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ص 258.

⁴⁸ - ماري أن بافو، جورج إلياسرفاتي، النظريات اللسانية الكبرى، ص 353-354.